الأسطورة والاعجاز القرآني

للأستاذ محمد أحمد خلف الله

قلنا فى مقالنا السابق إن الأقدمين من المفسرين قد فهموا من الأسطورة أنها ما سطره الأولون من قصصهم وأحاديثهم ونقلنا عن كتبهم من النصوص ما يثبت ذلك . ولعلنا لم ننس بعد ما ذهب إليه الطبرى فى آخر عبارته من القول بأن المشركين ما كانوا يقصدون من وراء كل هذا إلا القول بأن هذه الأساطير من عند محمد لم يجئه بها الوحى ولم تنزل عليه من السماء .

وقلنا فى نفس المقال أن الرازى قد فطن إلى الصنيع الأدبى فى بعض القصص القرآنى حين فرق بين جسم القصة وما فيها من توجيهات دينية هى قصد القرآن من قصصه . ولعلنا لم ننس بعد ما ذهب إليه الرازى من أن الأمر الأول هو الذى أدخل الشبهة على عقول المشركين وعلى قلوبهم وأنهم من أجل هذا قالوا بأن ما يجيء به محمد ليس إلا أساطير الأولين . ومعنى ذلك أيضاً أنهم ينكرون أن يكون قد جاء بها الوحى أو نزلت عليه من السماء .

واليوم نريد أن ندرس مع القراء موقف القرآن نفسه من هذه الأساطير .

وموقف القرآن يتلخص فى الاجابة عن هذا السؤال . هل نفى القرآن عن نفسه بناءه بعض القصص على الأساطير ؟ .

هذه هى الآيات التى تعرضت لهذه المسألة من القرآن الكريم

(١) قال الله تعالى « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » انعام ٢٥

(٢) وقال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال ٣١ ، ٣٢

(٣) وقال تعالى « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » النحل ٢٤

(٤) وقال « بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » المؤمنون ٨١ ، ٨٣

(٥) وقال « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما » الفرقان ٥ ، ٦

(٦) وقال « وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » النمل ٦٧ ، ٦٨

(٧) وقال « والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » الاحقاف ١٧

(٨) وقال ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » القلم ١٠ ، ١٥

(٩) وقال « ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » المطففين ١٠ ، ١٣ .

هذه هى الآيات التى صور القرآن فيها هذه العقيدة فلننظر لنرى ماذا فيها من حديث ؟ .

أول الأشياء أنها جميعها من القرآن المكى حتى ما نزل فيها من سورة الأنفال المدنية إذ نص القدماء واعتمد ذلك المصحف الملكى على أن الآيات من ٣٠ — ٣٦ من سورة الأنفال مكية. ومعنى ذلك أن هذا القول إنما كان من المشركين من أهل مكة وأنه اختفى بانتقال النبى إلى المدينة ولذلك سر سنقف عليه بعد حين .

وثانى الأشياء أن القائلين لهذا القول هم فى الغالب الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالآخرة وذلك واضح كل الوضوح من آيات سور . المؤمنون . النمل . الأحقاف . المطففين . ذلك لأن الحديث معهم فى هذه المسألة بالذات .

ثم هو متصل بسبب قوى بالحديث عن الحياة الآخرة فى آيات سور الأنعام والنحل .

ومعنى ذلك فيما نرى أنهم كانوا يعتبرون الأقاصيص التى تجسم عملية الأحياء بعد الاماتة والتى تمثلها للناس على أنها قد وقعت . من الأساطير .

وإذا ما ضممنا إلى هذا أمراً آخر هو أن تلك الأقاصيص القرآنية التى يذهب المستشرقون إلى أنها من الأساطير كقصة أهل الكهف تلك التى يسمونها أسطورة السبعة النيام وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية ٥ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . ٥ كان موضوعها البعث وأنها تجسم عملية الأحياء بعد الإماتة وتمثلها للناس على أنها قد وقعت . تبين لنا أن الشبهة قد دخلت على أولئك من الباب الذى دخلت منه على هؤلاء .

ومعنى ذلك أن هيكل القصة لا ما فيها من توجيهات دينية كان العامل القوى فى الذهاب إلى هذا القول من أولئك وهؤلاء.

ومن الصدف القريبة أن المحدثين من المفسرين يرون أن هذه القصة الأخيرة قصة الذى مر على قرية وهى خاوية قد يكون القصد منها التمثيل . فقد جاء فى المنار ج ٣ ص ٤٩ بعد تفسيره لتلك القصة ما يأتى (ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل)

إن الأمر كما قلت فى مقالى السابق يحتاج إلى النظرة الدقيقة الفاحصة . نظرة العلماء الذين يقفون على أسرار الصناعة الأدبية ويفقهون المسائل القرآنية ويواجهون الحقائق مواجهة العلماء . أما أولئك الذين يفزعون ويهرعون إلى وهمهم كلما تحدث متحدث ليقذفوه بالكفر ويرموه بالإلحاد فأولى للقرآن ثم أولى لهم أن أن يختفوا من الميدان .

إن قوة عقيدة المشركين وسعة أفق المستشرقين يضطر اننا إلى أن نتناول المسألة كما يجب أن يتناولها العلماء .

لنستعرض سويا هذه الآيات ولننظر فسنرى

فى سورة الأنعام يذهب المشركون إلى النبى يستمعون إلى القرآن لكنهم بعد الاستماع يجادلونه ويقولون له ما هذا إلا أساطير الأولين . ونعتقد أنهم لم يقولوا هذا القول فى مواجهته وأمام سمعه وبصره إلا وهم يعتقدون أن ما يقولونه الحق وما يرونه الصواب . ومعنى ذلك أن الشبهة عندهم قوية جارفة .

وفى سورة الأنفال يذهبون ويستمعون وبعد هذا وذاك يقولون قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ولا يكتفون فى هذا الموطن بهذا القول وإنما يذهبون إلى أبعد من هذا فى التحدى ويقولون . اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

وإذ كنا نعتقد بصدق القرآن فى تصوير إحساساتهم كان لابد لنا من التسليم بأن هذه العقيدة قوية جارفة وتقوم على أساس يطمئن إليه المشركون ذلك هو ورود بعض الأساطير فى القرآن الكريم .

وفى الأحقاف يقف ولد هو فيما يروى المفسرون ابن أبى بكر من والديه هذا الموقف القاسى العنيف (والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ماهذا إلا أساطير الأولين)

وإذا كنا نعتقد بصدق القرآن فى تصويره لخلجات الأنفس فإن الأمر الذى لا بد لنا منه هو الاعتراف بأن هذا الشخص الذى يضجر من والديه ويتأفف من قولهما ويشك فى عودته إلى الحياة مرة ثانية ويقيم هذا الشك على ملاحظته لظاهرة من الظواهر هى أن القرون قد خلت من قبله ولم يعد إلى الحياة أحد كان قوى العقيدة شديد اليقين فى أن ما يروى له من الأساطير

وهكذا نلحظ أن الشبهة قوية عنيفة وأن القرآن يصورها تصوير الصادق الأمين . ونحس نحن من تصوير القرآن لها أن القوم كانوا صادقين فى التعبير عما يحسون ويشعرون به نحو ما يتلى عليهم من آى القرآن الكريم .

والمسألة عقلا لا تحتمل أكثر من فرضين .

الأول أن القوم يقولون هذا القول كذباً وادعاء لتضليل الناس وصرفهم عما يتلو عليهم محمد من آى الذكر الحكيم .

الثانى أن القوم كانوا يعبرون التعبير الصادق عما يدور فى

خلدهم من إحساسهم بأن فيما يتلى عليهم بعض الأساطير .

ونرجح نحن الغرض الثانى ولكن نكتفى فى ترجيحنا له على القول السابق من صدق القرآن فى تصوير إحساسهم من أن الذى يتلى عليهم فيه بعض الأساطير . وإنما سنعمد إلى شىء آخر يدل على صدق عقيدتهم هو موقف القرآن الكريم .

لنستعرض الآيات مرة أخرى فسنرى .

١ — اكتفى القرآن بوصف هذا الصنيع من المشركين فى آيات سور الأنفال والمؤمنون والنمل والأحقاف .

٢ — اكتفى القرآن بتهديد القوم فى آيات سور الأنعام والقلم والمطففين . وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث أو على صدهم الناس عن إتباع النبى وليس منه التهديد على قولهم بأن الأساطير قد وردت فى القرآن الكريم

٣ — ومرة واحدة رد القرآن عليهم قولهم وهى المرة التى ترد فى سورة الفرقان وهذه هى الآيات . قال تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما)

وهو رد لا ينفى كما نرى ورود الأساطير فى القرآن وإنما ينفى أنها من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ، ويثبت أنها من عند الله . قل أنزله الذى يعلم السر ... الخ .

ويحسن بنا أن نثبت هنا نصاً للرازى فى هذه المسألة فقد قال رحمه الله فى ج ٦ ص ٣٥٤ ما يأتى (البحث الأول فى بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة وتقريره ما قدمنا من أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال (قل أنزله الذى يعلم السر ...) انتهى .

والذى يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازى يسأل عن كيفية أن يكون قوله تعالى : قل أنزله الذى يعلم السر ... الخ إجابة عن قولهم وقالوا أساطير الأولين ... الخ . ذلك لأن الرد الذى كان يتوقعه الرازى إنما يكون بنفى الأسطورية عن القرآن ومن هنا حاول ما حاول ليجعل إجابة القرآن ملاقية للشبهة .

وأعتقد أن الرازى لم يفطن إلى الصواب فإجابة القرآن هى الإجابة الطبيعية وهى الإجابة التى لا محيد عنها فى هذا الميدان . ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والمشركين لم يكن عن ورود الأساطير فى القرآن وإنما كان على اتخاذهم ورود الأساطير دليلا على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحى ولم ينزل عليه من السماء . ومن هنا كانت الإجابة فى محلها وكانت إثبات أن القرآن من عند الله (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) ولم تكن الإجابة نفى ورود القصص الأسطورى فى القرآن . وهذا هو الذى نص عليه الطبرى فيما نقلنا عنه من حديث فى مقالنا السابق . وهذا هو الذى يدل عليه ما ذكره القرآن من قبلهم (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) .

ذلك لأنهم كانوا يستبعدون أن يصدر مثل هذا القصص الأسطورى عن الله . ومن هنا وقفوا موقفهم من النبى وقالوا عنه وعن القرآن ما قالوا .

والآن نستطيع أن نلتفت قليلا إلى الوراء .

لقد رصدنا فى مقالنا السابق ما نجنيه من الفوائد وقلنا إن أهمها تخليص القرآن من مطاعن الملاحدة والمستشرقين .

والآن نعود إلى رصد شىء آخر هو أعز علينا وآثر عندنا من كل ماعداه ذلك لأنه سر قوى من أسرار إعجاز القرآن الكريم

لقد كان هذا الصنيع الأدبى من القرآن — وهو بناؤه بعض قصصه الدينى على أساس من الأساطير القديمة — تجديداً فى الحياة الأدبية عند العرب المكيين . وكان تجديداً لم يعرفه القوم من قبل لبعدهم عن الكتب السماوية ومن هنا أنكروه وقالوا ما قالوا عن النبى وعن القرآن الكريم .

ولقد كان هذا الصنيع الأدبى مما ألفه القوم من المدنيين خاصة أهل الكتاب ذلك لأنه الصنيع الذى جرت عليه التوراة وجاء به الإنجيل ومن هنا لم ينكروه ولم يقولوا فيه مثل ما قال الأولون من المكيين . ولا يزال هذا الصنيع حتى اليوم من عمل الأدباء المجيدين ولا بدع فى أن يكون صنيع القرآن وهو فى أعلى ما عرفت العربية من طبقات البلاغة وأدب القائلين .

وهذا ما نحسب أنه السر الذى أشرنا إليه فى أول هذا المقال من وجود هذه العقيدة بمكة واختفائها بانتقال النبى إلى المدينة